




بقلم : اليزابيث مونرو

مركز دراسات الشرق الاوسط بجامعة اكسفورد

ترجمة : محمود محمود

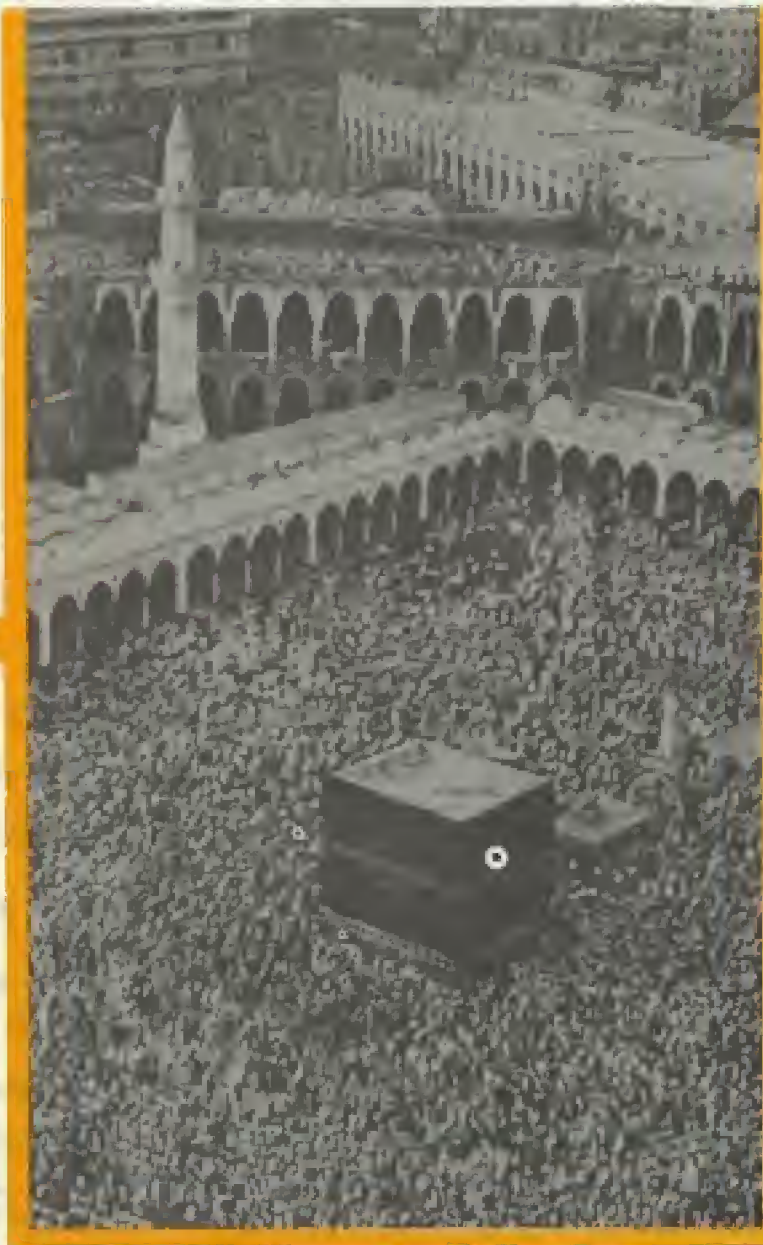


ان اسم الجزيرة العربية يرتبط ارتباطا كليا في هذه الايام بزيوت
البتروول ، وقلما نسمع به في معرض الحديث عن معصولات هامة اخرى
في تاريخها مثل البخور واللؤلؤ والبن مما يقفز الى الذهن مباشرة •
ولكن ارجو ان اذكر صادراتها من سلع اخرى توافرت بكميات كبيرة ،
وكذلك الطرق التي سارت فيها حتى بلغت الاسواق التي كانت تشتريها •

(١) هذا المقال ترجمة لمقال باللغة الانجليزية للكاتبه ومنشور بالقسم الانجليزي بهذا العدد •

ان اقدم ما عرف من صادرات الجزيرة العربية - فيما اعلم - هو النحاس . وسوف ابين فيما بعد الحاجة الى هذا المعدن . عندما اكتشفت المدينتان العظيمتان الواقعتان على جانبي الجزيرة - مصر وسومر - ليونة النحاس وقابليته للانصهار اشتدت رغبتهما في استيراده ، لأن المعادن لم تكن موجودة محليا في كلا البلدين . ولتوضيح ذلك اذكر ان الناس كانوا - لانعدام المسامير - يربطون الواح السفن بالياق النخيل ، ولبثوا على ذلك عدة قرون . ولازلنا في الوقت الحاضر نراهم يفعلون ذلك على الشطآن العربية النائية ، وكان لمصر في هذا افضل موقف نظرا لاكتشافها النحاس في وقت مبكر في سيناء ، ومناجم اخرى في شرق وغرب اعالي النيل ، ثم اكتشف النحاس بعد ذلك في قبرص . اما سومر فكانت في موضع اسوأ ، ولذلك فسوف ابدا بواردات سومر من النحاس .

اننا سعداء الحظ في دراستنا لحضارات ما بين النهرين لانها سجلت تاريخها على مادة لا تستهلك ، وهي الصلصال . ان الألواح المصنوعة من الصلصال التي اكتشفت في القرن التاسع عشر بعشرات الآلاف على يد ليارد في Kuyunjik (نينوس) ، والامريكان في نيبور ، وسير ليونارد وولي في أور تتضمن تسجيلات تجارية ، وعند فك رموز هذه التفصيلات المحلية في بداية الامر في القرن التاسع عشر اهتمنا شأنها لاننا ركزنا كل اهتمامنا على مقدار تأكيد المحتوى التاريخي في هذه الألواح للتاريخ كما اورده الانجيل . وباستثناء هنري رولنسون قل من الاوربيين من عني بالمعلومات الاجتماعية في هذه الألواح ، وكلهم كان يتطلع شمالا وغربا نحو فلسطين . ولكن الألواح التي اختارها رولنسون للنشر منذ عام ١٨٦١ كانت تورد احيانا اسماء بلاد من الجنوب ، ومن بينها ديلم (١) ، التي وصفها كجزيرة في البحر المر - جزيرة بهيجة تجري فيها انهار من الماء العذب ، وبغلاف ديلم كان هناك بلدان آخران ماجان Magan - وهي اقربهما اليها - وملوكة Meluhha - وهناك اشارات الى جزيرة ، رمياه ، ذكرت معها توجيهات ملاحية تافهة ، اوحت الى رولنسون ان الجزيرة ربما كانت البحرين . واكثر من ذلك أن وجود ديلم امكن تعديده بين سلسلة من التواريخ بفضل ذكر الجيران او الاعداء . وقد وجدت الديلم على الاقل من زمن سارجون الاكادي Sargon of Akkad (حوالي عام ٢٣٠٠ ق م)

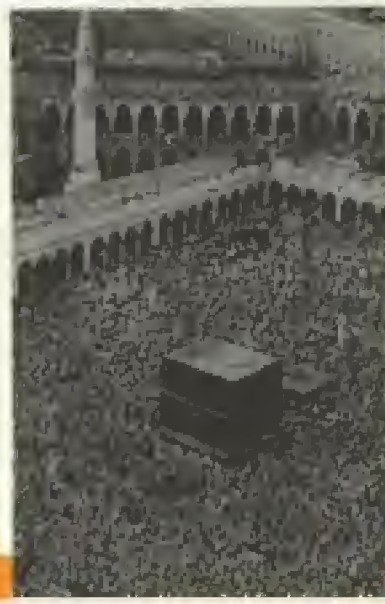


الى زمن سارجون الاشوري Sargn of Assyra في القرن الثامن قبل الميلاد .
 اما فيما يتعلق بهدفنا من ذكر الصادرات العربية فان اكثر السجلات التجارية صلة
 بالموضوع كان من اكتشاف دولي في اور وهي تتعلق بعمل تاجر او وسيط من هذه
 المدينة في قرابة عام ١٨٠٠ ق.م . وكان هذا التاجر يستورد النحاس والباح وجلد
 السلحفات و « عيون السمك » (وقد فهم اكثر مفسري الرموز هذه على انها تعني
 اللؤلؤ) من زميل له في التجارة في ديلم . وكان يستورد النحاس بكميات مذهلة
 بالنسبة الى نوع وسائل النقل التي تيسرت له ، في وقت كانت السفن فيه لاتعدو ان
 تكون حزما من الغاب ، وعندما كان العمار العربي القوي هو خير وسيلة نقل برية .
 وكانت الشحنة الواحدة تبلغ ثمانية عشر طنا ونصف .

ومن الواضح ان ديلم تستدعي تحقيق المكان ، ومع ذلك فان البحوث الاثرية
 لبقاياها في البحرين لم تبدأ الا في عام ١٩٥٣ ، ويرتبط اسم جوفري ببي بهذه
 البحوث . وكان ببي في بداية حياته موظفا في شركة بترول وتأمل الحقول الشاسعة
 التي تقع جنوبي قرى ومدن البحرين . وكانت النظرية السابقة تقول بان هذه
 الحقول لا بد ان تكون مقابر حضارة داخلية ، ولكن ببي انكر ذلك وامعن في التفكير
 وبالقرب من قرية تعرف باسم بربر كشف اولاً عن معبد ، وبالقرب منه قصر ، ثم
 حفر في احد التلّول فكشف عن سبع مدن تقع احداها فوق الاخرى . وارخ ببي هذه

الحضارة وفقا لما وجده من اوانى خزفية واوزان واختام . وقرر انه كانت بينها وبين سومر وحضارة السند العظيمة علاقات تجارية انتهت فجأة في عام ١٧٥٠ ق م . وما يهم العرب السعوديين انه وجد مواقع بربرية اخرى ، احدها في جزيرة فيلكه تجاه الكويت ، ولم يستطع البحث عن الاخرى لأن كتابانها تقع تحت قرية وحمام سيدات في الطرف الجنوبي من جزيرة تاروت الخضراء تجاه القطيف مباشرة . وقد ورد ذلك في كتابه (البحث عن ديلم) . ويهمننا هنا أن نعرف أن ديلم كانت اكبر مما تصور ، وانها قرية من البحرية ، وكانت قطعاً ميناءً بحرياً ، وقد وجد فيها « ذرات عديدة من النحاس في رمال الشاطئ » وهذا النحاس كان يعالج محلياً ، ولكنه لم يكن ينتج محلياً ، بل ولم يكن خالصاً ، ففيه آثار من النيكل ، وهو مخلوط شبيه بالمخلوط النحاسي الذي عرفناه في منتصف العشرينات عند البحث عن البترول في الجبال التي تقع شمالي عمان ، وهنا تعيننا الواح أور في زيادة التفهم للموضوع ، فهي تنبئنا بأن وارداتهم النحاسية كانت من « انتاج ماجان » تأتي من هناك مباشرة أحياناً وعن طريق ديلم أحياناً أخرى . وربما حق لنا أن نقول أن ماجان هي عمان وأن النحاس كان أهم صادرات الجزيرة العربية .

ومحصول آخر كانت تصدره الجزيرة العربية من قديم هو اللؤلؤ الذي سوف أعود اليه فيما بعد . ولكن قبل أن أترك ديلم والواح ما بين النهرين المصنوعة من الصلصال أروي هنا أسطورة هامة عن اللؤلؤ . ولعل أكثر الواح ما بين النهرين شهرة هو اللوح الذي يروي قصة الفيضان لعهد نوح وتعرف باسم ملحمة جلجاميش ، وجلجاميش هذا ليس هو نوح ، إنما هو شخص شبيه بهرقل عرف بأداء الأعمال الشاقة وبالشجاعة ، ولذلك تمنى أن يوهب حياة أبدية ، وقد ظفر نوح بهذه الهبة بمياه ديلم ، ولذلك ذهب جلجاميش إلى ديلم لكي يعرف سر نوح وعرف من نوح أن (زهرة الخلود) يمكن التقاطها من قاع البحر ، كما عرف كيف يفعل ذلك ، يجب أن يربط حجارة ثقيلة بقدميه ثم يغطس إلى أعماق البحر ليلتقط نباتاً شائكاً كالورد ، عندئذ يفصل الحجارة الثقيلة عن قدميه ويطفو على السطح ، وهذه الحيلة بكل تفصيلاتها شبيهة بما يفعله صائد اللؤلؤ وعنوان القصة (الرجل يعود إلى الشباب في شيخوخته) ولكن لسوء حظه عند عودته إلى عروق Uruk خرج له ثعبان من جحره والتهم اللؤلؤ - وهو يستعم في أحد الآثار المطرية - وحرمه من النعمة التي كان يترقبها .



واترك الاسطورة الآن لاعود الى الحقيقة عندما اتحدث عن تجارة البخور - وهو المحصول الاحتكاري الذي يرتبط بالاهمية التي ينالها البترول العربي اليوم . والبخور يتألف من اللبان والمر ، وبخاصة من المر ، وهو نوع من الصمغ تجده تحت قشور الاشجار ويستخدم في تحضير الدواء ومواد التطرية والتحنيط . وهو ينمو في المناخ الحار الرطب ، ويشيع وجوده على الساحل الافريقي للطرف الجنوبي للبحر الاحمر ، ولكن ينمو على الجانب العربي كذلك ، وكان كما يقول الخبراء يزرع في وقت ما قرب بيجان فيما يعرف اليوم باسم جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

واللبان كذلك نوع من الصمغ يوجد تحت قشور الاشجار ، سريع الاحتراق واندر من المر . وينمو نوع منه في شرق الصومال ، ولكن احسن انواعه ينمو في جنوب شرق الجزيرة العربية في ظفار ، وهو يستعمل في العبادات (٢) والمضغ ولتغطية الروائح الكريهة ، وهو من مركبات الكحل الجيد ، وحتى العهد الحاضر يعد من الوائح الكريهة . وهو من مركبات الكحل الجيد ، وحتى العهد الحاضر يعد من الهدايا الملائمة التي يعود بها الحجاج ، وان كان الاسلام من الاديان القليلة التي لم تستخدمه باحراقه في التقرب الى الله .

في حين ان قدماء المصريين كانوا يحرقون البخور للآلهة، كما يستسيغون التوابل، وكانوا يجمعونه من بلادهم ومن اعالي النيل ، ويرسلون الحملات منذ الاسرة الخامسة والسادسة الى بلاد بنت - ولسنا ندري ان كانت بنت هذه هي بلاد الصومال او الجزيرة العربية - ثم كان عهد الملكة حتشبسوت التي ارسلت بعثة كبرى الى بلاد بنت وسجلتها على جدران معبد الدير البحري تجاه الاقصر ، وكانت في حاجة الى المر وقد عادت باشجار عديدة منه الى مصر ، ولكن زراعته لم تفلح في الجو الجاف .

والرحلة الاخرى الشهيرة المتعلقة بالتوابل العربية قامت بها ملكة سبا الى سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد تحمل اليه قدرا كبيرا من التوابل ، وسوف اعود اليها بعد ما اصصف الممالك التي انت فيها .

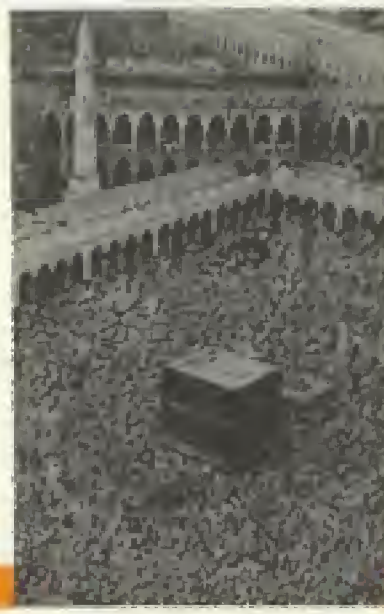
ومن المعلومات الاثرية التي لدينا ندرك ان تجارة البخور كانت العمل الرئيسي في عهد ملكة سبا في اربع او خمس امارات تابعة للجزيرة العربية السعيدة وهي اليمن وظفار الحديثتان . وقد كان الحكام الجدد في هذه البلاد من زمن بعيد يعترضون على

الدخلاء لانهم لم يتصوروا ان الاجانب الذين ينقبون تحت الاحجار الكريمة من الزوار ذوى السمعة الطيبة ، وذلك لانهم هم انفسهم لا يهتمون نسبيا بتاريخ ما قبل الاسلام ومن انتشار التعليم ووجود الاثريين العرب انفسهم ينقبون عن تاريخ بلادهم القديم بدأت هذه العوائق في التناقص . وبرغم ذلك فما برح اكثر معلوماتنا عن التاريخ القديم لجنوب الجزيرة العربية مستمد مما هو ظاهر فوق الارض ، وقل منه ما نعرفه من الحفريات التى تعطينا ما يسميه بيبى « دليل المعول »

والممالك الاربية الرئيسية هي حضرموت مصدر اللبان وقعطية وسبأ ومعن ، والاخيرة وهى اقصاها شمالا كانت ناقلة للتوابل اكثر منها زارعة له ونقوشها كثيرة فى مركزها التجاري فى العلا شمالي المدينة ، كما تجدها فى مصر وحتى جزيرة Delos (ديلوس) فى البحر المتوسط . ونعرف من الآثار والنقوش فى هذه الممالك - واشهرها سد مارب العظيم سبا - انها كانت منتعشة على الاقل من القرن السادس قبل الميلاد حتى النصف الثانى من القرن السادس بعد الميلاد ، وانهم كانوا شعوباً مستقرة لها ثقافتها التى نموا الكثير منها وهم فى عزلتهم ، وانهم عاشوا عيشة طيبة على الانتاج الزراعى الذى يعتمد على الفيضانات التى تتحكم فيها السدود ، وانهم فى سنواتهم الاخيرة استوردوا او قللوا الفن الهلنى ، وانهم كانوا يقومون بتجارة رابعة بقوافل الصحراء شمالى مصر وسوريا وشرقاً عبر شبه الجزيرة حتى الخليج العربى . وفى بواكير عصرنا هذا قام قوم يقطنون قريباً من الساحل الجنوبى - هم الحميريون - بغزو جيرانهم فى الشمال ، واطلقوا اسمهم على المنطقة كلها .

وفى القرن السادس بعد الميلاد انهارت كل هذه الحضارة المزدهرة بسبب الجدل الدينى من ناحية وتدخل القوتين العظميين فى المنطقة - وهى فارس وبيزنطة - من ناحية اخرى ، وقد استخدمت بيزنطة الاثيوبيين المسيحيين جنوداً ضد ملوك اليهود المحليين ومن علامات الانحلال انفجار سد مارب العظيم - وتمكن الفرس فى نهاية الامر من ضم جنوب الجزيرة العربية ودالت دولة الحميريين .

اما عن ملكة سبا التى كانت تتاجر بتوابلها مع الشمال فقد لجأت الى سليمان ، فبنى ميناء فى Ezion - Geber (على خليج العقبة) واستاجر فينيقيين خبراء



لبناء اسطول تجارى والابعار فيه . اما هي فكانت تستخدم قوافل الجمال وطريق البر ، وهذا الميناء الجديد وخطوط المواصلات الجديدة هدت بقطع الطريق البري الى احسن اسواقها في مصر وسوريا ، وربما كان ذلك لحصرها تماما . ويحق لنا ان نتصور ان رحلتها كانت رحلة تجارية تهدف منها اما الى الاحتفاظ بطرقها البرية واما الى ان تعدد نصيبا عادلا لكل من طريق البر وطريق البحر .

وكانوا ينقلون حصا البان اما على اطلوان الى ميناء تسمى Cana ومن هناك تسير التجارة في الطريق البري . . او تذهب مباشرة عن طريق وادي حضر موت لمكان تخزين فيه عند شبوا Shabwa وهو مكان مهجور في الوقت الحاضر ولكن كان فيما مضى عاصمة لمملكة غنية - وهنا كان رجال الدين يستولون على جانب من البان لمعابدهم ، ثم تواصل التجارة سيرها ، ويضاف اليها المر من قعطبة ، وتتجه اولا ناحية الغرب ثم شمالا عبر الممالك الاخرى ، وكل منها يعصى المكوس . وبعدئذ كان يقوم بنقلها المينويون Minaeans شمالا بالطريق الذى يقع داخل جبال اليمن والحجاز - وهو طريق اصبح فيما بعد من طرق الحج المطروقة - الى نجران ومكة ويشرب (المدينة) والعلا ومن هناك ، او من «الهجرة» (مدائن صالح) شمالا كان النبطيون يحملونها الى البتراء حيث يتم توزيعها عن طريق غزة في مصر وسوريا وما وراءهما .

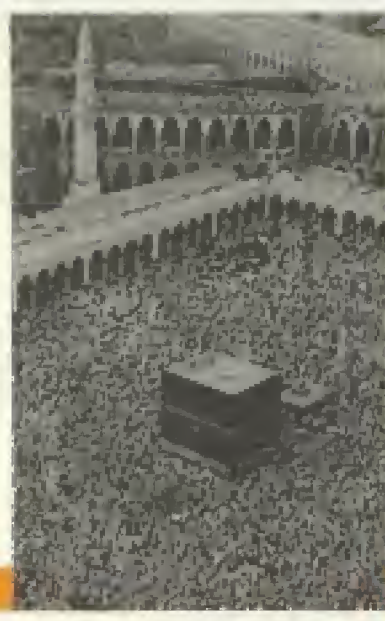
ولكى تصل السلع الى الخليج العربى كانت تتجه الى نجران وتعبّر شبه الجزيرة شمالي الربع الخالي بطريق بينته اخيرا العفريات السعودية في الفاو في جبل طويق حيث كانت تقام سوق ومستعمرة سبابة ، ومن هناك تتجه الى الشمال الشرقي اما عن طريق الافلاج او الخرج او عن طريق جيرين (٣) الى مدينة على الساحل تسمى جرعاء Gerrha بها سوق ، ونحن نرجح اليوم ان اهالي ظفار كانوا ينقلون حصا البان مباشرة الى جرعاء Gerrha عبر الطرف الشرقي من الربع الخالي ، وهذا امر من الصعب تحقيقه لاننا لم نعثر على موقع جرعاء (٤) Gerrha وكل مانعرفه وصلنا عن طريق الكتابات التي تقول بان جرعاء Gerrha كانت مركزا تجاريا ضخما غنيا . والارجح ان يكون هذا المركز قد تلاشى مع الزمن وقد يكون موقعه تحت رمال العقير جنوب الظهران ، او تحت انقاض مدينة من العصور الوسطى تسمى تاج هي الآن فيما وراء جبير (٥) ، وكانت قديما على بحيرة او

خليج • ومن Gerrha جرعاء كانت التوابل العربية والهندية تنقل برا وبحرا الى بلاد النهرين ، وكذلك برا الى البتراء عبر واحتي تيماء وتبوك •

وكانت الطرق البحرية تستعمل ايضا اولا على اطواف من الغاب ثم في قوارب ولكنها كانت طرقا ساحلية لان شبه الجزيرة العربية لم تنتج الخشب لصناعة سفن تمخر عباب البحر ، كما ان البحر الاحمر تكتنفه الشعب المرجانية ، وتهب عليه الرياح الشمالية الدائمة ، وكذلك لم تكن توجد موانئ صالحة في جنوب شبه الجزيرة العربية او على سواحل الخليج الشرقية ، ولم يكن يعرف شيء عن الملاحة العربية قبل غزو الاغريق للشرق الادنى الا انه مما لا شك فيه ان ملاحى مصر وسومر وفينيقياء والهند كانوا يبحرون في المياه العربية قبل ذلك التاريخ بوقت طويل • وكان العرب يفعلون ذلك ايضا لانهم لو لم يخطرخوا في عرض البحر لكان من الصعب ان نعلل سبب ثراء ممالك البخور الغنية • ومن المعتقد ان مصر وما بين النهرين كانتا تجلبان التوابل من المناطق الاستوائية مثل القرفة والهيل والقرنفل والزنجبيل وجوز الطيب وهى من منتجات افريقيا او الهند •

ولما وصل الاغريق عطلوا هذه الاحتكارات ولكنهم لم يوقفوها • وكان الاسكندر قبل وفاته بيومين قد اعد حملة بحرية حول شبه الجزيرة وقاد الحملة نيركوس Nearchus من مصب نهر السند مارا بساحل ماكران ، وكان يستطيع ان يحقق ماكان يصبو اليه الاسكندر الا ان المشروع انتهى بوفاة الاسكندر عام ٣٢٣ قبل الميلاد وبذلك تعطل تدخل الاغريق في تجارة التوابل لمدة قرنين •

وعند ما جاء خلفاء الاسكندر من البطالمة والسلوقيين عملت سفنهم بالتجارة الا ان ذلك لم يكن له اثر واضح على الاحتكارات العربية حتى عهد بطليموس السابع عندما اصبحت السفن قادرة على الابحار من لسان بحرى عند عدن او سومطرة الى ساحل ملبار في الهند وتعود اما الى جنوب شبه الجزيرة لجلب اللبان واما الى الوطن مباشرة • ومنذ ذلك الحين اصبحت توابل المناطق الاستوائية الاسيوية ، بل حتى البضائع من الصين تصل الى مصر والى البحر الابيض مباشرة • وعلى الرغم من ذلك ظل العرب في جنوب الجزيرة محتفظين بتجارة التوابل لفترة خمسة قرون اخرى على الأقل للتعويض عن الاحتكار الذى فقدوه وذلك بذكائهم لانهم ظلوا وسطاء للجمعيات التجارية •



ان افضل دليل لنا على هذه الفكرة السائدة وعلى مقادير البضائع والسفن التي كانت تفرغ وتحمل في الموانئ العربية وكذلك المعاملات مع مصر والحبشة والصومال وشرق افريقيا وفارس والهند - هو نوع من القوارب استخدمه تاجر يوناني غير معروف او قبطان بحري من مصر في القرن الاول الميلادي ، وهو الذي رأى بنفسه معظم الاماكن التي يصفها * ولسوء الحظ كتب وصفه باللغة الاغريقية المصرية والنصان الموجودان عرضة لمناقشة العلماء *

ويوجد دليل اكثر اهمية عن ازدهار تجارة التوابل في شبه الجزيرة العربية - وهو دليل اثرى للثروة المجلوبة ، دليل مكتوب من المستهلك لتك البضائع العربية ، وقد كان الحقد بالنسبة لهذا الاحتكار سببا في هجوم المتنافسين الاجانب على هذا الاحتكار - ويأتى دليل المستهلك هذا من كل مكان : من مصر القديمة او البطلمية حيث كانت قيمة اللبان ثمينة لدرجة أن العمال كانوا يفتشون عند مغادرتهم للمصنع الذي يصنع فيه ، ومن بابل حيث كانت مائه وزنه من هذه المادة الثمينة تحرق سنويا في اعياد الآلهة ، ومملكة يهوذا واسرائيل والهند واليونان واخيرا روما حيث كانت تستعمل مستوردات عام كامل من شبه الجزيرة في تحنيط الامبراطورة بوبيا في عام ٦٥ الميلادي ، وحيث كما كتب Tertullian (ترتوليان)

« اذا ضايقتني رائحة اى شيء فما على الا ان احرق شيئا من شبه الجزيرة »

ويوجد اقتباسان آخران لاتمام هذه الصورة *

الاول من الجغرافي البطلمي Agarthachides في القرن الثاني قبل الميلاد حيث قال : (يبدو انه لا توجد دولة اكثر ثراء من دولة سيبا Gerrhaians (واهل جرعاء) وهم العملاء لكل شيء يقع تحت اسم « استيراد من آسيا الى اوربا » والاقتباس الاخر بعد ذلك بقرنين يأتى من بليني Pliny « على اقل تقدير تاخذ الهند والصين وشبه الجزيرة العربية من الامبراطورية مائة مليون سسترق (عملة يونانية) كل عام * وهذا هو المبلغ الذي ينفق على كمالياتنا ونسائنا *

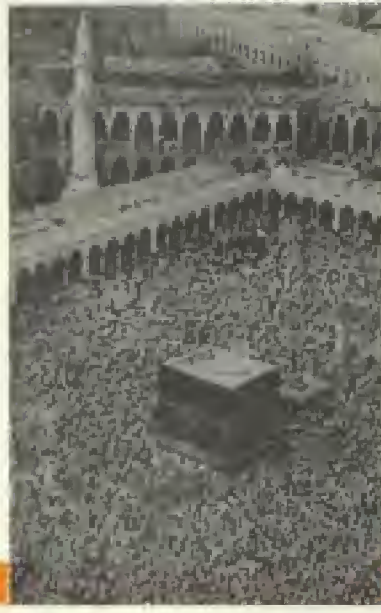
ودليل الثالث هو الهجوم الذي حدث نتيجة لحقد الطامحين وعندما حاول

بطليموس الثاني ، فيلادلفوس ، أن يعيد فتح طريق بحر سليمان صمم النبطيون في البتراء على الاحتفاظ باحتكارات شبه الجزيرة وهاجموه برا وبحرا بقوة كبيرة ، وحدث بعد ذلك على الجانب العربي للخليج في شبه الجزيرة أن صمم الحاكم السلوقي أنتيوكوس الثالث Antiochus III (حوالي ٢٠٥ قبل الميلاد) على الاستيلاء على تجارة جرعاء Gerrha ويوجد دليل على ثراء اهل جرعاء في قدرتهم على رشوته بجزية كبيرة من الفضة واللبان والمر . ويذكر لنا بوليبيوس Polybius انهم « رجوه ألا يقضى على ما منحتهم الآلهة - الحرية والسلام » فتركهم .

واخيرا جاء الرومان فارسل اوغسطس الى شبه الجزيرة العربية في عام ٢٤ قبل الميلاد أغرب حملة في التاريخ . ولم تكن لديه او لدى قائده « اليوس جالوس » اية فكرة عن احوال الصحراء فاخذ اليوس جالوس قواته في اول الامر عبر البحر الاحمر الشمالي الهائج حتى ميناء النبطية على ساحل شبه الجزيرة المسمى Leuce-Come (ينبع الحديثه) وهناك قابلتهم فرقة نبطية ولكن كان لا بد لهم من أن يمكثوا هناك عاما تقريبا حتى يشفوا مما عانوه من أمراض . وعندئذ سار القائد بقواته جنوبا حتى وصل الى نجران في ستين يوما ، ثم انتصروا في شمال اليمن وساروا الى مارب حيث قيل له انه على مسيرة يومين من دولة البخور ، ولكنه هو ورجاله تعبوا وعجزوا عن أن يفعلوا شيئا أكثر من ذلك . وبعد أن ادعى أن حلفاءه من اهل البتراء قد خدعوه انسحب بما تبقى لديه من رجال الى مصر .

وجاء مهاجم قوى آخر هو تراجان Trajan الذي استولى على البتراء وحولها الى ولاية رومانية عام ١٠٥ ق.م . وهاجم ايضا الموانئ الواقعة على رأس الخليج العربي ولكنه لم يستمر طويلا ومع أن الرومان لم يقضوا على التجارة العربية الا انهم نجحوا في تخفيض تلك التجارة ، أما القضاء عليها ، كما قيل فقد تم بعد ذلك وعلى أيدي أشخاص آخرين .

ومن المحتمل أن تكون لتجارة البخور الاولى التي وصفتها نتيجة تميز تاريخ المحيط الهندي كله وتلك هي تجارة الرقيق . ونحن ننسى في عصر السرعة الذي نعيش فيه الآن ما كان يلاقيه الاقدمون من مخاطر عند ما كانوا يرسلون البضائع والوثائق بواسطة سفن صغيرة تقطع رحلات طويلة ومعرضة للعواصف والحروب



والقرصنة ، ولعلاج ذلك كانوا يقيمون بعض العلاقات الشخصية مع من هم من دينهم في المناطق البعيدة أو يرسلون مندوباً مع الشحنة المصدرة . وكان هذا المندوب عادة ابناً أو صديقاً أو عبداً .

واتماماً لهذه العملية استقر الوكلاء العرب في الموانئ البعيدة لمراقبة أعمالهم وعلى مضي الزمن كونوا حلقة حول الحوض الشرقي من المحيط الهندي وذاولوا التجارة في شرق أفريقيا وانتشروا جنوباً حتى مكان يسمى (رابططة) Rhapta لم يتعرف عليه حتى الآن ولكنه في مكان ما في تنزانيا الحديثه ، وانتشروا أيضاً في الموانئ المتوسطه Kilwa (كلوه) وما لنيدى وممبسه وتركوا تراثاً معمارياً وان لم يكن فيه شيء مما هو قبل الاسلام ، وقد لعبوا دوراً بارزاً في القرن الثالث عشر في التجارة الخارجية على ساحل ملبار في الهند ، وأبدى البرابرة Moors (وهو الاسم الذي أطلقه عليهم البرتغاليون عند وصولهم) مقاومة عنيفة ضد منافستهم في أعمالهم من قبل فاسكو داجاما (وان كان من قبيل التهكم أن يشارا عربياً خبيراً يدعى أحمد عبد الماجد (Abdul Majid) - وفي القرن الثامن عشر عمل العرب في قوات شركة الهند الشرقية . وكانت الشركة تدفع أجوراً أعلى لمن ولدوا في شبه الجزيرة . وظل الحال كذلك حتى استقلال الهند في سنة ١٩٤٧ عندما جند نظام حاكم حيدر اباد هيئة الحرس الخاصة به من صلاله Salala والمكلا ، وفي سيلان مازال أحفاد من وصلوا في العصور الوسطى يديرون تجارة الصمغ ويتفاخرون بكلمة « مغربي سيلاني » الموجودة على جوازات سفرهم لتمييزهم عن غيرهم .

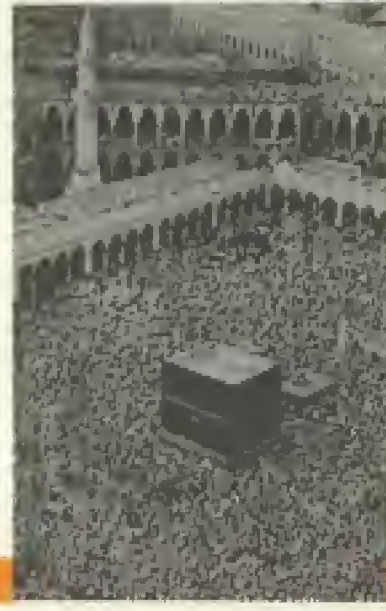
وعلى أي حال فإن المكان الذي جاء منه أسلافهم هو عادة الموانئ الساحلية الشمالية وفي بعض الأحيان من الشمال حتى جده ، وفي أفريقيا جاءوا غالباً من مسقط نتيجة لقوة عمان البحرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر وسيادتها على زنجبار .

ومن المستحيل في هذه الخطوة القصيرة أن أوضح لك تاريخ تجارة شبه الجزيرة كله في العصور الوسطى أو أن أعرفك بالمعلومات التي تدين بها إلى الرحالة الفراءدي

وعلى الاخص ابن بطوطة ، او ان اصف لك في لمحة سريعة البعثات التجارية الصينية سنة ١٤٠٥ - ١٤٣٣ . كما لا يستطيع ان اصور لك وصول البرتغاليين والهولنديين والبريطانيين والفرنسيين بحثا عن وسائل للتعايل على الضرائب الفادحة التي كان يتقاضاها الممالك والعثمانيون على تجارة التوابل ويجب ان اقتصر فقط على السلع العربية .

اولا . اللؤلؤ : كان المار بشاطئ الخليج يجد اكواما مكسوة من اصداف المحار وهي نفايات سفن اللؤلؤ . وفي القرن الثاني الميلادي كان ازيدور Isidore of Charax يستكشف نيابة عن سيده السلوقي وهو يحدثنا عن غواصي اللؤلؤ الذين كانوا يستعملون اطواقا من الغاب كما يتحدث عنهم أيضا استرابو وبلييني Pliny وكذلك الجغرافيون البطالمة ورحالة العصور الوسطى ومن بينهم ابن بطوطة ومارك يولو . ويتحدث عنهم نيبور في القرن الثامن عشر ، ويأتي ذكرهم في قصص رحالة القرن التاسع عشر التي لا حصر لها وافضلها عندي هي قصة المسز بيرنوت تومسون الجزئية التي رافقت بعارة بومباي في حملة سنة ١٨١٩ - ١٩٢٠ لاختماد الفتنة في ساحل القرصنة . وهناك كتبت من رأس الغيمة أن رائحة اصداف المحار الكريهة قد سلبتها لذة قراء الشعر . واذا اردنا الدليل على وجود الغوص بحثا عن اللؤلؤ في وقتنا الحاضر فلنقرأ قصة قصيرة كتبها الكاتب الفلسطيني غسان كنفاني وتقول القصة انه بدلا من لعب كرة الموائد في الكويت يشتري أحد الصعاليك كيسا من المحار ويراهن على وجود لؤلؤة فيه .

ثانيا . الذهب : نحن نعلم ان الذهب موجود في شبه الجزيرة وعلى الاقل منجم واحد . والخريطة التي نشرتها وزارة البترول والمعادن السعودية لم توضح الكثير عن المعادن الموجودة . ومع الخريطة ملحق يوضح أن المعادن مقصورة على منطقة ما قبل العصر الكمبرى (جيولوجى) وأعنى بها الحجاز وعسير وجبال اليمن ولا يوجد شىء في المساحات الرسوبية وأعنى بها الصحراوات الممتدة الى ساحل الخليج . ويتحدث استرابو وآخرون عن كميات من الذهب العربى ولكنهم لم يعددوا مكانه . وقد بحثت على اجد دليلا قديما ولكنى منيت بخيبة أمل . وتاريخ المسعودى في القرن العاشر - مروج الذهب ومناجم الاحجار الكريمة أصبح عنوانا رمزيا . ويذكر ولستد Wellsted في خريطة خليج العقبة في سنة ١٨٣٠ ميناء تسمى



«مرسى الذهب» - ميناء الذهب - ولكن هذه التسمية كانت بسبب لون الميكا Mica الاصفر في الرمال ، وكتب بيرتون « مناجم ذهب مدين » ولكنه لم يجدها مطلقا . والمادة الوحيدة التي قرأتها عن تعدين الذهب في العصور الوسطى هي في القرن العاشر للهمداني Hamdani وهو يتحدث عن مناجم بين مكة والمدينة (٧) . ولدينا الآن معلومات حديثة بفضل حاجة المرحوم الملك ابن سعود للذهب في السنوات الأولى من حكمه . الثلاثينات من هذا القرن عند ما استخدم مهندس المناجم الأمريكي كارل تويتشل Twitchell للبحث عن الماء والزيت والمعادن ، حقق رغبته وان لم يكن ذلك بالقدر الذي يرضيه . وقد حدد تويتشل موقع خمسة وخمسين منجم ذهب قديم ولكنه لم يستطع ان يستخرج ذهباً الا من منجم واحد فقط بكميات تجارية وذلك باستخدام الطرق الحديثة . وسمى منجمه « مهد الذهب » ويقع جنوب المدينة وقد در ريعا (اقتباسا من فيلبي) قدره ٢٠ مليون دولار فيما بين عامي ١٩٣٤ ، ١٩٥٠ .

وأخيرا أتحدث الآن عن مملكتي الحيوان والنبات ، أما مملكة الحيوان فاني أقتصر على دواب الركوب السريعة القيمة التي كانت ولا تزال تشتهر بها بلاد العرب وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر سار الرحالة الاوربيون برا من الهند في قوافل كبيرة متجهين الى الكويت أو البصرة وكانوا يشيرون دائما الى الذلول (جمل الركوب السريع) وكانت قبائل نجد تصدرها للبيع في دمشق وحلب ، ويذكر لوريمر أيضا في دليل الخليج العربي أن أفضل ابل السباق كانت تصدر من عمان بينما كانت توجد ابل أقل جودة في منطقة الاحساء التي توجد بها واحة الهفوف

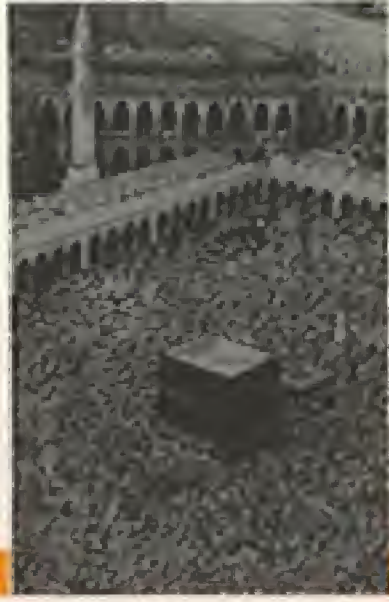
والحصان العربي الذي كان هاما للسباق كان يأتي من منطقة أوسع بكثير من شبه الجزيرة العربية ، من أراض عربية غنية بالمراعي كالعراق وسوريا وساحل البرابرة في شمال أفريقيا والثروة الخاصة للرجل العربي في الجزيرة العربية هي الاحتفاظ بالخيول ، وكانت أكثر ترفا من تربية الذلول لان الحصان يحتاج الى القمح ويشرب الماء أكثر من الجمل .

وعلى الرغم من ذلك كان العرب يربون الخيول منذ العصور الوسطى على الأقل وكان الامراء الهنود يشترونها منهم لاستعمالها في حروبهم المحلية .

ويحدثنا الرواة الاوربيون في القرن التاسع عشر عن تربية الغيول في داخل شبه الجزيرة . وقد اشترى الرحالة الفنلندي والين Wallin خيولا من قبيلة شمر ، في حائل من أجل معمد على والى مصر سنة ١٨٤٥ - وقد فعل نفس الشى كارلو جسرمانى Gusrmani الايطالى من أجل نابليون الثالث وملك سردينيا سنة ١٨٦٤ ، وذكر أن أحسن الغيول كانت من قبيلة عنزه ، واشترى القليل من مناطق القصيم ، وأخيرا وجدت الليدى آن ودلفريد بلانت المتخصصان الشهيران في الجياد الاصيله انواعا جيدة في منطقة حائل سنة ١٨٨٠ . وكذلك توضح لنا تقارير ادارة فرسان الجيش في سملا أنها اشترت ألف حصان في العام صدر معظمها من البصرة والكويت .

ومن بين الصادرات النباتية ساذكر البن فقط وكان احتكارا عالميا . وكانت مغا تصدر البن مثلما كانت ظفار تصدر اللبان . وتوجد أسطورة عربية خيالية عن اكتشاف البن ، فيقال أن راعيا من اليمن أخبر المفتى أن معيزه (الماعز) بعد أن أكلت من شجرة معينة أصبحت نشطة وامتلات حيوية فما كان من المفتى الا أن أخذ الحبوب أملا أن تساعد على يقظة دراويشه للتعبد طوال الليل ، ولا تحدثنا القصة عن صنع القهوة أولا بل ذكرت الحبوب فقط . ولكن أول الاوربيين الذين قيل أنهم تذوقوها . كانا ابان يسوعيان سيئا الحظ ، وكانا مسافرين من الهند الى الحبشه في سنة ١٥٩٠ ولسوء حظهما أسرا وأرغما على السير في وادى حصرموت ثم الى صنعاء وقد قدمت لهما القهوة في الطريق . وقد انتشر استعمالها سريعا بعد ذلك وفي سنة ١٥٩٦ وصلت بعض حبوب البن الى فيينا وفي سنة ١٦٢٢ كانت تباع في البندقية ثم انتشرت كثيرا بعد ذلك ، وسرعان ما فرض عليها المماليك والاتراك ضرائب باهظة .

ومن الطبيعى أن أتحدث عن صادرات أخرى - سمك أبو سيف المجفف أو السمك المجفف الذى كان يرسل الى هولندا كسماد للابصال ، وأقول الآن ببساطه أن الله قد منح العربية السعودية بما يعادل ٣٠٪ من احتياطي الزيت في العالم .



- (١) ربما المقصود (بلون) البحرين القديمة ..
- (٢) اللبان ، لا يستعمل في العبادات - كما تقول الكاتبة - ويصح أن نقول انه يستعمل في الشعوة وما اليها .
- (٣) وتنطق (بيرين) بلهجة بني تميم .
- (٤) الجرماء ، مدينة قديمة ، كانت مركزا تجاريا من أكثر بلدان الشرق ازدهارا في العصر اليوناني القديم ، بقرب (العقير) على ساحل الخليج العربي في منطقة الاحساء ، يقول العالم الأمريكي (بروس كورنوال) : (على مقربة من ميثاء العقير توجد خرائب أثرية يعتقد علماء الآثار انها بقايا مدينة (فرحاء) إحدى مدن جزيرة العرب ، وكانت هذه المدينة في العهد اليوناني والروماني من أشهر الاسواق والمراكز التجارية في الشرق الاوسط ، وفقد مساحتها خمسة أميال ويسمى بعضها بعض مؤرخي العرب (الجرماء) . (محمد عبد المحسن آل عبد القادر ، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد ، القسم الاول ١٣٧٩ الرياض ص ٢٣) .
- (٥) ربما كان الصواب : الجبيل ، المدينة المعروفة الان في المنطقة الشرقية من المملكة ، وكانت تعرف قديما باسم (عيثان) .
- (٦) المعروف أن الاسم الصحيح لابن ماجد هو : (أحمد) ، وفي كتاب (العرب والملاح في المحيط الهندي) تأليف جورج فضلو حوراني ، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر ، ص ٢٣٧ ، القاهرة ، - وأظنه مرجع الكاتبة في هذه الفقرة - يقول : (فكان من مغريات التاريخ أن ملاحا عربيا كبيرا ساعد في القضاء على الملاحة العربية ، إذ لم يستطع العرب ابعاد البرتغاليين ومن تبعهم من الشعوب الاوروبية الاخرى أو منافسيهم) .
- (٧) كتاب الهمداني الذي تشير اليه الكاتبة هو كتاب (الجوهريين العقيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء) ، قام بتحقيقه حمد الجاسر ، ولم ينشر بعد ، وقد أشار الهمداني في كتبه الاخرى الى معادن بلاد العرب مثل (صفة جزيرة العرب) . عن الكتب التي ألقت عن المعادن في بلاد العرب ، وعن كتاب الجوهريين انظر : حمد الجاسر ، المعادن القديمة في بلاد العرب ، مجلة العرب مج ٢ ج ٩ ربيع الاول ١٣٨٨ ص ٧٩٨ - ٨٤٦ ، والاجزاء التي بعدها ، وعن نفس الموضوع انظر : موديتس ، المعادن في البلاد العربية القديمة ، مجلة العرب مج ٢ ج ٧ ، ص ٥٨٠ - ٥٩٢ .

«سكرتير التحرير»